بلاد الرافدين: مواقع ووجوه وأحداث على علاقة بالعهد القديم

الأب أيوب شهوان

مقدمة

يدرك العاملون في حقل الكتاب المقدس أهمية الاطّلاع على المواقع الجغرافية الرافدينية، والتعرّف إلى الشخصيات أو الوجوه الفاعلة في تاريخ تلك الأمبراطوريات وفي أحداث كثيرة يَرِدُ ذكرُها في العهد القديم، وذلك من أجل فهم العديد من النصوص البيبلية فهمًا علميًّا صحيحًا. لن يكون ذلك كافيًا ولا وافيًا في صفحات معدودة نحررها لهذا الإصدار من مجلة بيبليا، لكننا نكتفي هنا بالقليل، آملين أن يثير فينا فضولاً وشهيةً للبحث الأشمل والغوص الأعمق في غنى تلك الحضارة السامية التي مدّت الكتاب المقدس بالكثير من عطاءاتها اللغوية والأدبية والروائية والفكرية والدينية وغيرها.

أ – الأمبراطورية الآشوريّة[1]

١ – الاحتلالات الأقدم (أو الأولى)

دعا تغلاتفلاسر الأول نفسَه "ملِكَ العالم، ملكَ أشور، ملكَ أربع أصقاع الأرض"، واعتدّ بأنّه حقّق احتلالات من زاب السفلى حتى البحر الأعلى، عندما حكم حوالى العام ١١٠٠ ق. م. سار لمحاربة بلاد نايْرِين (في الشمال)، وقطع أرزاً من لبنان، وأخذ جزيةً من جبَل (جُبَيل) وصيدون وأرواد. عَبَر الفرات ثمان وعشرين مرّة. وصل جيشُه إلى بحيرة فان (في الشمال، شرقي دجلة). سيطر على كلّ شمال بابل، واحتلّ مدينة بابل. لكن هذه المرحلة من المجد لم تدم طويلاً إذ تبعتها قرونٌ مظلمة.

تلا ذلك عصرٌ آخَر من السيطرة مع أشورنَصِيربال الثاني (٨٨٣–٨٥٩) ذي القوّة والسطوة. من بِتْ–أَدِيني عَبَر نهر الفرات، واستولى على كَرْكَمِيْش[2]، وتَجاوَزَ شمالَ سوريا (حَطِّينا)، وغَسَلَ أسلحته في البحر الكبير، آخذاً الجزيةَ من صور، وصيدا، وأرواد، ومن مدن أخرى، ثمّ صعد إلى جبال أمانوس (شمال غرب سوريا).

وَسَّعَ خَلَفُهُ شلمنسرُ الثالثُ (٨٥٨–٨٢٤) حدودَ أشور جدّاً، وكان يفتخر بأنّه بلغَ منابعَ نهرَي دجلة والفرات. سار لمحاربة أكّاد (بابل)، ودخلَ مدنَ بابل، وكُوثَه، وبُورْسِيبَّا. في الشمال وصل إلى بحيرة فان. سنة ٨٥٣، غزا سوريا، فخضعت حَلَبُ له، ولكن، في قَرْقَر[3]، على نهر العاصي (أُورُونْتِس)، صادف تحالفَ اثني عشر ملكاً، كانت من ضمنه قوات آحاب ملك إسرائيل، وهَدَدعِزر ملك دمشق، وفصائل أيضاً من حماة، وكُو، ومُسْرِي، وأرواد، وعَرَابْيَا، وعَمُّون. سنة ١٤٨، عبر الفرات للمرّة السادسة عشرة، وهَزَمَ حزائيلَ ملكَ دمشق، وتلقّى الجزيةَ من صور وصيدا، ومن ياهو[4] ملك إسرائيل.

٢ – صعود نجم آشور

أَضْعَفَت ثوراتُ أُورَاترو (أرارات) وتجاوزاتُها أشور، لكن تغلاتفلاسر الثالث (٧٤٥–٧٢٧) أوقفَ تقدُّمَ أوراترو، فاحتلّ أرواد، وغزا فِلِسْطْيَا، وتلقّى الجزيةَ من كُمُّوخُو، وميلِيد، وكُو، وسَمَل، ودمشق، وصور،

(١) John BRIGHT, *A History of Israel* (The Westminster Press³ 1981) 269-309; Henri CAZELLES, *Introduction à la Bible* - Édition nouvelle. *L'Ancient Testament* (Desclée: Paris 1973) 31-32. 49s. 62.

(٢) CAZELLES, *Introduction...*, p. 29. 51. 56. 63. 407.

(٣) CAZELLES, *Introduction...*, p. 49. 322s; PEREGO Giacomo, *Interdisciplinary Atlas of the Bible. Scripture, History, Geography, Archeology and Theology* (St Pauls: UK 1999) 26.

(٤) *The Collegeville Atlas of the Bible* (A Liturgical Press Book: Collegeville, Minnesota 1998) 9. 56; PEREGO, *op. cit.*, p. 46.

وجِبَل، وعَرَابْيَا (بلاد العرب)، ومن مصادر أخرى، بمن فيهم مناحيم ملك إسرائيل. وصل إلى طُورُشْبَا في أوراترو، ولكنّه عجز عن احتلالها. أقنعه آحاز بمواجهة هجمات إسرائيل ودمشق ضدّ يهوذا (أي اليهودية؛ رج ٢ مل ١٦: ٥-٩؛ إش ٧-٨)، فاحتلّ دمشقَ، وألحقها بأمبراطوريّته، وضمّ إليها أيضًا كلّ إسرائيل باستثناء مقاطعة السامرة، وأَجْلَسَ هُوشِيَعَ على عرش إسرائيل.

وبعدما أصبحَ شلمناسر الخامس (٧٢٧-٧٢٢) ملكَ أشور، انتفضَ إسرائيل عليه؛ عندها غزا شلمناسرُ اليهوديةَ، وسجن هُوشِيَع، وحاصر السامرة. أكمل سرجونُ الثاني (٧٢١-٧٠٥) إخضاعَها، فسَبى ٢٧٢٩٠ إسرائيليّاً إلى حالَه، وخابور (نهر غُوزان)، وميْديَا. أعاد بناءَ السامرة، وأتى بغرباء من بَابِل، وكُوثَه، وأَفَّا، وحَمَاة، وسِيفَارْقَايِم[٥]. هُزِمَ حَنُّو، ملك غزّة، وصِيبَا (رج ٢ مل ١٧: ٤)، ملك مصر في رَافْيَا (رَفَح).

سنة ٧١١، أمسك أَزُوري، ملكُ أشدود، عن دفع الجزية، فانتشرت الانتفاضة. ومن دون أن ينتظر سرجونُ جَمْعَ كلِّ جيشه، غزا الساحلَ، فاستولى على مدن جَت، وأشدود، وأشدُودمُّو. بعد ذلك، أخضع سرجونُ بابل التي كانت تحت حُكْم مِرُوداخ-بالادان، وبنى عاصمةً جديدة في دُور-شَرُّوكِين.

قامت في وجه ابنه سنحاريب (٦٨١-٧٠٤) ثورةٌ في فينيقيا وفِلِسْطيَا، شَجَّعَهُما عليها مروداخ-بالادان ومصر (٢ مل ٢٠: ١٢ي؛ إش ٣٩). لكن سرعان ما استسلمت المُدُنُ الفينيقية، ومؤاب، وأدوم، وعمّون، أما الآخرون فدفعوا الجزية. ثمّ هزمَ القوّةَ المصريّةَ الأثيوبيّةَ في إلتِكِه، وحاصرَ عقرون وأخذَها. بعدها غزا اليهودية، وأرغم أورشليم على الاستسلام[٦]. سقطت بابل أمام سخاريب سنة ٧٨٩، فعاثَ جيشه في بابل فساداً بلا شفقة.

٣- بلوغ أشور الذّروة ثمّ أفول نجمها

نُحِرَ سنحاريب في نينوى في مؤامرة حاكها ضدّه ابناهُ أَدْرَمَّلَك وشَرآصِر، شقيقَا أسرحدّون الأكبر سنّاً (٦٨٠-٦٦٩). لاحقهما أسرحدّون حتّى هانيجَلْبَات غربي دجلة الأعلى، لكنّهما فرّا إلى "بلاد أرارات" (أي أوراترو؛ رج ٢ مل ١٩: ٣٦ و٣٧). بعد فشلٍ أوّليٍّ في مصر، دخلها أسرحدّون، واستولى على ممفيس، وضمّ مصر إلى الأمبراطورية؛ وبالرغم من هزيمة تِرْحاكَه، ملك مصر، فقد نجح في الفرار إلى نابّاتَا. أعلن أسرحدّون أنه استولى حتّى على أثيوبيا (كُوش). على أثر كل هذه الانتصارات، دعا نفسَه "ملك آشور، حاكم بابل، ملك كَارْدُونْيَاس (بابل)، ملك مصر، بَاتُورِيسي ("باتْرُوس" البيبلية، في مصر العليا)، وأثيوبيا". وفي طريق العودة، أخضع أَشْقِلُون (عسقلون). ولأنّ مَنَسَّى، ملك اليهوديّة، كان قد شارك، على ما يبدو، في الثورة في هذا الجزء من الأمبراطورية أو لأنّه توقّف عن دَفْعَ الجزية، فقد نُفِيَ إلى بابل (٢ أخ ٣٣: ١١ي). على الحدود الشمالية الغربية، هَزَمَ أسرحدّونُ تِيُوسْفَا، ملك القِمَّارِيّين، و"داسَ رقاب الشعب في خِلاكُو، وأوقف مؤقّتاً تقدُّم القُوطيين ("Scythians")[٧].

قام أشوربانيبَّال (٦٣٠-٦٦٨) بحملةٍ أولى ضدّ مصر، فأخذ ممفيس، واحتلّ طيبه؛ وفي حملة ثانية هَزَمَ تَنْدَمَان خليفة تِرْحاكَه، واستباحَ طِيبَه. يَرِدُ ذكرُه في عز ٤: ١٠ على أنه "أُوسْنَبَّار (هو أشوربانيبال، وحرفياً: اسنفر) النبيل والعظيم".

أيام أشوربانيبال بلغت آشور ذروةَ نموِّها الثقافي، وهذا ما تعكسه أماكنُ إقامة الملك والمكتبة التي اكتُشِفَت في نينوى. كانت هذه الأخيرة[٨] العاصمة الأخيرة لآشور، تقوم على الضفة الشرقية من نهر دجلة، وكانت تُعرَف بـ"المدينة العظيمة". يُعلن واضعُ سفر يونان أنه كان "يلزم ثلاثة أيام لاجتيازها" (يون ٣:٣). وتفيد المعطيات الأركيولوجية أن قطرها كان يزيد قليلاً على ٤ كلم، لكن بالمقارنة مع قرى إسرائيل الصغيرة، كانت تبدو وكأنها مدينة كبيرة. أظهرت الحفريات روعة

(٥) رج حوليات سرجون؛ رج ٢ مل ١٧-١٨.

(٦) رج حوليات سرجون، و٢ مل ١٨؛ إش ٣٦.

(٧) H. CAZELLES, «Sophonie, Jérémie et le Scythes en Palestine», *RB* 74 (1976) 24-44.

قصر سنحاريب فيها، مع الأسوار التي كانت تحيط بالمدينة، التي كان طولها يبلغ ١٢ كلم، وفيها اثنا عشر بابًا.

تمكّنت مصر وبابل من الإفلات من قبضة آشور، فكان الأُفُول بعد موت أشوربانيبال سريعاً.

أيّام نابُوبُولاسّار، نالت بابل الاستقلالَ سنة ٦٢٦، بعد هجوم آشوري فاشل على بابل. سقطت آشور بيد الماديّين سنة ٦١٤، ودُمِّرَت نينوى على يد الماديِّين والبابليّين سنة ٦١٢ (رج سفر ناحوم).

تَقَلَّدَ أَشُورُوبَلِّيط الحُكْمَ على آشور في حاران، وفي سنة ٦١٠ انسحَبَ إلى سوريا عندما استولى الماديّون والبابليون على حاران.

على قدر ما اتّسعت الأمبراطورية الآشورية، على قدر ذلك كان حكمها صعبًا، وإدارتها معقدة، لأنها كانت تضمّ أُممًا مختلفة أُخضِعَت بدرجات متنوعة من القسوة، يجمعها العداءُ ضدّ المحتلّ الطاغية. لقد جعل التوسّعُ الجغرافيُّ مسألةَ الحفاظِ على السيطرة على تلك الأمم أمرًا مستحيلاً؛ أضف إلى ذلك ضعف نظامِ وسائلِ الاتصال، والإدارةِ السيّئة وغير الفعّالة. تطلّب قمعٌ كهذا تخصيص نفقاتٍ متناميةٍ لرفعِ مستوى القدرة العسكرية. سنة ٦٢٥، نزل الماديّون في نينوى العاصمة الآشورية، فاسترجعت بابل استقلالَها.

ب - الأمبراطوريّة البابلية

١ - بداية الأمبراطورية النِيُو-بابلية (الكلدانية)[٩]

كان البابليون متورّطين في العمق في قَدَر اليهودية، كما كانوا موضوعَ العديدِ من الأقوال النبوية (مثلاً: إر، حز، وإش ٤٠-٥٥). توفّر لنا الآن نصوصٌ محفوظة على ألواح من الآجُرّ تتضمّن حولياتِ الملوك الكلدانيّين، معلوماتٍ عن المرحلة التي شَهِدَت نهايةً الأمبراطورية الآشورية، وقيام بابل، وسقوط أورشليم، ونَفْيَ اليهود. بعد أن ضُرِبَ الآشوريون في بابل سنة ٦٢٦، تَمَّ تنصيبُ نابُوبُولاسَّار رسميًّا في ٢٣ تشرين الثاني سنة ٦٢٦. أُعيدَت آلهةُ سُوزا إلى مدينتِها، بعد أن كان الآشوريون قد حَطُّوها من مقامها في إرِخ، وهذا تأكيد على استقلال عيلام. في الحرب مع آشور، سارَ نابُوبُولاسَّار بمحاذاة الفرات، فأخْضَعَ سُخُو وخِنْدانُو، ونهَبَ مُدُنَ منطقة بَالِيخُو؛ وفي شرق دجلة غزا مدينةً في أَرَّبْخَا، ولاحق الآشوريين حتّى زاب السفلى، لكن الهجوم على آشُور فشل. في سنة ٦١٤ استولى الماديُّون على آشور، وعندما صل نابوبُولاسَّار إليها كانت المدينة قد سقطت. وفي سنة ٦١٢ استولى الماديُّون والبابليون معاً على نينوى. عند سقوط المدينة، هلك سِنْشَارِشْكُون، شقيقُ أشوراِتيليلاني والابنُ الثاني لأشوربانيبال الذي كان معدًّا لأن يجلس على عرش آشور.

سارت الجيوش البابيلونية مرات عدّة إلى الفرات الأعلى، وبلغت نصيبين؛ وفي سنة ٦١٠، وبمعونة الماديّين والقوطيين، استولت على حاران. تحالف المصريون مع آشور السائرة إلى نهايتها، وفشلت محاولة مشتركة لاستعادة السيطرة على المدينة في سنة ٦٠٩. كان يوشيا ملكُ اليهودية قد قُتِلَ عندما كان نِخُو ملكُ مصر في الطريق إلى الفرات في تلك السنة. كان المصريون قد استولوا على كوراماتي وكِيمُوخو في جنوب كركميش. وفي سنة ٦٠٥ هَزَمَ نبوخدنصر وَلِيَّ عهد المصريين في كركميش، وأحرقَ المدينة (رج إر ٤٦:١-١٢)، وتولّى حَتّي (سوريا وفلسطيا) حتى الحدود المصرية، وأخضعَ ياهوياكين.

٢ - ملْكُ نبوخدنصر[١٠]

عند وفاة نابوبولاسَّار، أصبح نبوخدنصر (٦٠٤-٥٦١) ملكاً. كثيراً ما حلَّتْ جيوشُه في حَتّي من أجل الإمساك بزمام الأمور وجمع الجزية. في كانون الأوّل ٦٠٤، قاد نبوخدنصر حملةً ضدَّ أشقلون، محوّلاً إيّاها إلى كومةٍ من الخرائب. سنة ٦٠١-٦٠٠ سار باتّجاه مصر، فخاض هناك معركة شرسة ولكن غير حاسمة (رج إر ٤٦:

(٨) CAZELLES, *Introduction...*, p. 62. 394. 464; *Atlas of the Bible*, p. 12. 62.

أنظر في هذا العدد، مقال الأخت ماري لويز شهوان، "نينوى: من حضارة عظيمة إلى قدوة في التوبة".

(٩) CAZELLES, *Introduction...*, p. 50. 56. 59. 233. 395

١٣ي). وبتشجيع من مصر، انتفض ياهوياكين ضدّ الملك البابلي. وفي كانون الأوّل من سنة ٥٩٨، شنّ نبوخدنصر حملة ضدّ "أرض حَتّي"، وحاصر أورشليم. نُفِيَ ياهوياكين وآخرون إلى بابل (رج ٢ مل ٢٤ وإر ٢٨:٥٢)، وعَيَّنَ نبوخدنصرُ صدقيا ملكاً من اختياره هو. تذكر لوحاتٌ اكتُشِفَت في بابل، وتعود إلى الأعوام ٥٩٥–٥٧٠، وجودَ أسرى وعمّالٍ ماهرين من عدّة أمم، ومن بينهم ياهوياكين وأبناؤه الخمسة، وأبناء آجا، ملك أشْقِلُون، وعمّالٍ وبحّارةٍ وموسيقيين من صور، وجبَل، وأرواد، وعيلام، وميديَا، وفارس، وإيونيا، وكيليكيا، وليديا. يفيد وجود أسرى من بيريندو وخُوم في بابل، أن نبوخدنصر قد قام بعملية حربية في كيليكيا، ومن المرجّح أن يكون ذلك في الوقت الذي كانت فيه ميديا تحت حكم كِيَاكْسَارِس، وليديا تحت حكم ألياتّس في حالة حرب. التقى الماديُّون والليديُّون عند نهر هاليس في معركة إكْلِيبْس الشهيرة في ٢٨ أيّار سنة ٥٨٥، وأُعلِنَت هَالِيس حدوداً بين الأمبراطوريّتيْن.

عندما ثارت اليهودية سنة ٥٨٩، غزت الجيوش البابلية البلاد. سنة ٥٨٨ بدأ حصار أورشليم. هُزِمَ الجيش المصري الذي كان قد أتى لمساعدة اليهودية. عندما سقطت أورشليم في تموز ٥٨٧ أو ٥٨٦، اقتيد صدقيا للمحاكمة أمام نبوخدنصر في ربلَه في أرض حَمَاة (٢ مل ٢٥: ٢٠–٢١). أمّا صورُ العاصيةُ فقد عانَت ثلاث عشرة سنة من الحصار الذي بدأ سنة ٥٨٨–٥٨٧.

٣ – خلفاء نبوخدنصر

خَلَفَ ابنَ نبوخدنصر، إفِل–مِرُودَاخ (أَمِل–مَرْدوك، ٥٦١–٥٥٩؛ رج ٢ مل ٢٥: ٢٧–٣٠)، نِرْجالُ–شَرازِرُ (٥٥٩–٥٥٥)، الذي كان حاضراً عند حصار أورشليم (رج إر ٣٩: ٣ و١٣). رمّم هياكلَ بابل وبُورسِبَّا وفي سنة ٥٥٧–٥٥٦ شنّ حملةً ضدّ أبُوَاشُو ملك بيرِيْدو، الذي دخل خُوم من أجل أن ينهب ويأخذ أسرى. تمّت ملاحقته حتى أُورا وكِرْشُو، حتّى جزيرة بِيتُوسُو، وأُحرِقَتْ سَلُّون. بعد ملْكِ لاباشِي–مردوك لبضعة أيام، أصبح نابونيدُ ملكاً على بابل (٥٥٥–٥٣٩). كان من سلالةٍ كهنوتية؛ أَسَرَهُ ووالدتَه نبوخدنصرُ في حاران سنة ٦١٠. واصل حَرْبَهُ في سوريا ولبنان، وكان جيشه في خُوم. وإذ كانت طرق القوافل من جنوب عرابيا، هاجَمَ تِيمَا المدينةَ الواحةَ، وجعلها مكان إقامته الملكية. قَلَّدَ ابنَه بِلْشَاتزار المُلْكَ في بابل.

في تلك الأثناء أصبح قورش، مَلِكُ أنْشَان، مَلِكَ الماديّين والفرس، فقبض على أَسْتِيَاجِس مَلِكِ مِيْدِيَا، وعلى إكْبَاتَانَا (٥٥٠). أثناء محاصرة بابل، هاجم ليديا؛ وبعد معركة غير محسومة على نهر هَالِيس، سقطت سَرْدِيس سنة ٥٤٦. تمّت السيطرة على شمال بلاد الرافدين، وغزو غربي عرابيا. هُزِمَ الجيشُ البابلي في أُوبِس على نهر الفرات، وأُخِذَت سِبَّار. في تشرين الأول من سنة ٥٣٩، دخل جُبْرِياس، قائدُ قورش، بابل بعساكره وسجنَ نابونيد.

المراجع

BRIGHT John, *A History of Israel* (The Westminster Press³ 1981).

CAZELLE Henri, *Introduction à la Bible* - Édition nouvelle. *L'Ancient Testament* (Desclée: Paris 1973).

- «Sophonie, Jérémie et le Scythes en Palestine», *RB* 74 (1976) 24-44.

- «Problèmes de la guerre syro-ephraïmie», *Eretz Israel* XIV (Jerusalem 1978).

Collegeville (The) Atlas of the Bible (A Liturgical Press Book: Collegeville, Minnesota 1998).

GARELLI P., "Nabonide", *SDB* VI (1960), col. 269-286.

LEIBOVICI M., "Nobuchodonosor", *SDB* VI (1960), col. 286-291.

MALAMAT A., "The Last Kings of Judah and the fall of Jerusalem", *IEJ* 18 (1968) 137-156.

PEREGO Giacomo, *Interdisciplinary Atlas of the Bible. Scripture, History, Geography, Archeology and Theology* (St Pauls: UK 1999). (Original title: *Atlante Biblico Interdisciplinary*, ed. San Paolo: Roma 1998. Translated by Stewart Foster).

(١٠) M. LEIBOVICI, "Nobuchodonosor", *SDB* VI (1960), col. 286-291.